أخبار الحجاج العراقيين في العصر العباسي في كتاب المنتظم[*] لابن الجوزي

د. عبد الجبار حامد احمد[**]

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[١].

المقدمة

تعد فريضة الحج كما هو معروف ركناً من اركان الدين الاسلامي الحنيف، فقد فرضه الله جلّ علاه على المسلمين لمن استطاع اليه سبيلا، لذلك فان المسلمين

---

[*] مؤلفه جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي الذي يرجع نسبه إلى ابي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد سنة(٥١٠هـ/١١١٦م)وتوفي سنة(٥٩٧هـ/١٢٠٠م)،الحافظ الفقيه المفسر الواعظ الاديب، وهو حنبلي المذهب،سمع الحديث والفقه عن كبار علماء عصره امثال ابي بكر بن الزاغوني وابي يعلى بن الفراء وابي بكر الدينوري وغيرهم، له معرفة في العلوم كالتفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه، وصنف في ذلك كتبا كثيرة مثل كتابه المشهور(المنتظم في تاريخ الملوك والامم) وكتاب في التفسير المشهور بـ(زاد المسير) وله(جامع المسانيد) استوعب فيه غالب مسند احمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي وله(مقامات وخطب) وله كتاب في(الاحاديث الموضوعة) وكتاب في(العلل المتناهية في الاحاديث الواهية)، وله مجالس وعظ كثيرة، وكان الناس يتزاحمون على مجلسه، فيقول عن مجلس وعظه: "وكان الناس يقفون يوم مجلسه كانه العيد"، قرأ عليه عدد من طلاب العلم منهم ابو عبد الله بن تيمية خطيب حران وطلحة العلثي وغيرهما، وظل كذلك حتى وفاته. للتفاصيل انظر:(ابن الاثير،الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية(بيروت:١٩٩٥)،١٠/٢٧٦؛ابن كثير،البداية والنهاية،مكتبة المعارف،(بيروت:د/ت)،١٣/٢٨؛ابن مفلح، برهان الدين، المقصد المرشد في ذكر اصحاب الامام احمد، تحقيق:عبد الرحمن سليمان العثيمين، ط١،(الرياض:١٩٩٠)،٢/٩٣-٩٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار الكتب العلمية(بيروت: د/ت)، ٢/٣٢٩).

(**) قسم التاريخ – كلية الآداب/جامعة الموصل.

[١] الحج، الآية: ٢٧، ٢٨.

على مرالعصور تواقين لزيارة البيت الحرام وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى وعلى مختلف مستوياتهم وطبقاتهم، فهو حدث سنوي عظيم عند المسلمين جميعا، وكذلك هو مؤتمر اسلامي سنوي يجتمع فيه المسلمون غنيهم وفقيرهم اسودهم وابيضهم ؛ لتأدية شعائر الحج والتباحث في شؤونهم، وقد تناول المؤرخون اخبار الحجاج ضمن الاخبار التاريخية امثال الطبري وابن الاثير وابن كثير، ومنهم من صنف كتابا متخصصا عن الحجاج امثال عبد القادر بن محمد الجزيري المتوفي سنة(٩٨٧هـ) والمسمى بـ "درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة" والمطبوع في القاهرة سنة(١٩٦٤)، لذلك جاء هذا البحث المتواضع في لبيان اخبار الحجاج العراقيين في العصر العباسي الذين نقل اخبارهم ابن الجوزي في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم".

قيادة قوافل الحجاج:

التقاليد المتبعة تقضي بأن يقود الحجاج في كل سنة شخص يخول من قبل الخليفة، ويشترط فيه ان يكون ذا دين وسمعة حسنة، ومن اصحاب الاخلاق الحميدة ويتصف بالتواضع والقبول الحسن بين الناس لكي يكون اهلا لهذه المهمة المباركة، ويتحمل مسؤولية الحجاج وتوفير الامن والمأكل والمشرب، والوصول بهم إلى مكة ثم القيام بالمهام الموكلة اليه في اثناء مراسم الحج ومن ثم العودة بهم سالمين.

ونظرا لاهمية هذه المناسبة فقد نهض بهذه المهمة في العصر العباسي الخلفاء والامراء والوزراء لقيادة قوافل الحجاج العراقيين محملين بالهدايا لمكة والمدينة، ومقدمين التسهيلات والخدمات للحجاج.

ومن التقاليد في مواسم الحج ان الخليفة كان يخلع على أمير الحجاج ويمنحه الصلاحيات لممارسة مهامه، ففي سنة(٥١٢هـ/١١١٨م) خلع الخليفة

العباسي المسترشد بالله على امير الحجاج، ولقبه بامير الحرمين واعطاه لوائين وسبعة احمال، وسار للحج[١].

وكان بعض من امراء الحج يستمرون سنين عديدة في هذه المهمة، ومنهم من يبدل بغيره، ويتوقف ذلك على السمعة الحسنة والخدمات المقدمة للحجاج، ورضى الناس عنه، فمثلا ظل أمير الحجاج(ختلغ بن كنتكينت ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) اثني عشر عاما بهذا المنصب[٢] وحج بالناس سنة(٢٥٩هـ/٨٧٢م) ابراهيم بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي[٣] واستمر حتى سنة(٢٦٣ هـ/٧٧٦ هـ)[٤]. في حين حج بالناس لسنة(٢٦٤هـ/٨٧٧م) هارون بن محمد بن اسحق الكوفي الهاشمي، وكان واليا على مكة والمدينة والطائف[٥]، وظل إلى سنة(٢٧٩هـ/٨٩٢م) بعد ان تولى قيادة الحج لمدة ست عشرة سنة[٦] ويبدو ان ولده ابا بكر محمد بن هارون المعروف بابن ترنجة هو الاخر ممن كان موضع ثقة الدولة، لذلك فقد عهد اليه إلى جانب قيادة الحجاج ان يكون واليا لمكة والمدينة والطائف، علما انه كأبيه استمر مدة طويلة في قيادة الحجاج[٧].

وفي سنة(٣٦٦هـ/٩٧٦م) حج بالناس ابا عبد الله احمد بن ابي الحسين، محمد بن عبيد الله العلوي، واستمر إلى سنة(٣٨٠هـ/٩٩٠م)[٨]، وفي سنة(٣٨٩هـ/٩٩٨م) حج بالناس ابو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي وظل حتى سنة(٣٩٣هـ/١٠٠٢م)[٩].

---

[١] المنتظم، ١٩٩/٩.

[٢] المنتظم، ٣١/٩.

[٣] ١٩/٥.

[٤] ٤٤/٥.

[٥] ٤٥/٥، ١٠٠.

[٦] انظر: ٩٤/٩٢/٥، ١٠٠، ١٠٥، ١١٠، ١٣٨.

[٧] ١٤٥/٥.

[٨] ٨٤/٧.

[٩] ٢٠٦/٧.

الخدمات التي تقدم للحجاج:

من المعلوم ان حجاج بيت الله الحرام هم ضيوف الرحمن، فمن الواجب اكرام هؤلاء الضيوف لذلك فقد كان يقوم بهذه المهمة في كل مرة المحسنون والموسورون والمسؤولون، اما احتسابا لوجه الله تعالى، أو كجزء من المهام الملقاة على عاتق الدولة ممثلة بالخليفة أو الامير أو كجزء من واجب الشخص الذي يقود قوافل الحج. وقد اورد ابن الجوزي نماذج كثيرة توثق هذه المناسبة وتعكس التسابق لفعل الخير بين المسلمين اثناء مواسم الحج ومن ذلك: في سنة(٣٦٦هـ/٩٧٦م) حج بالناس ابو عبد الله احمد بن ابي الحسين بن عبيد الله العلوي الذي ظل متولي هذه المهمة حتى سنة(٣٨٠هـ/٩٩٠م)، وفي هذه السنة(٣٦٦هـ) كان من بين الحجاج جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني(امير الموصل) وحج معها اخواها ابراهيم وهبة الله، وكانت تلك السنة مشهورة وضرب بحجها المثل بسبب ما قامت به من اعمال خيرية اثناء سفرها، فقد استصحبت معها اربعمائة جمل محملة بالامتعة، وحين وصلت مكة، نثرت على الكعبة عشرة الاف دينار حمدانية، وانفقت على المساكين في الحرمين اموالا كثيرة، كما تصدقت على الفقراء والمساكين[١].

وفي سنة(٤٢٣هـ/١٠٣١م) انعدم الماء في طريق مكة وكذلك الغذاء، فاحتاج الناس لذلك، فتبرع احد الحجاج الواردين من خراسان، وهو ابو الحسن علي بن ميكائيل بالفي دينار من اجل انفاقها على طريق مكة، الا ان الخليفة العباسي(القائم بأمر الله) رفض ذلك وردها إلى صاحبها وامر بصرف الأموال من خزانته لمعالجة الموقف[٢].

وفي سنة(٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ارسل الخليفة العباسي المقتدي صفائح من الذهب والفضة لوضعها على باب الكعبة ووضع اسمه عليها[٣].

---

(١) ٤٨/٧.

(٢) ٦٩/٨.

(٣) ٢٧/٩.

وكان ابو منصور(ختلغ بن كنتكين) – المار ذكره – اميرا للحجاج، وقد تولى هذا المنصب اثنا عشر عاما، فيذكر انه فضلا عن وقوفه بحزم تجاه البدو والذين يتعرضون للحجاج وانهم كانوا يهابونه، فقد كانت له آثار مشهودة بين مكة والمدينة من بناء مشاهد ومساجد ومرافق خدمية اخرى[١].

وفي سنة(٥٤١هـ/١١٤٦م) حج الوزير نظام الدين أبو المظفر علي بن جهير[*]، وحج معه ابن الجوزي، وكان هذا الوزير ينفق في طريق مكة الأموال الكثيرة فضلا عن تميزه بالتواضع[٢].

المشاكل التي تصيب الحجاج والمعوقات التي تعتريهم:

يبدو ان الحجاج بشكل عام ومنهم العراقيون كانوا يتعرضون لمشاكل ومعوقات سواء كانت في أثناء ذهابهم للحج أو عند تأدية المراسم، ومن هذه المشاكل هجوم الاعراب عليهم في الطريق ونهب ممتلكاتهم وقتل بعضهم أو تعرضهم لكوارث طبيعية كالعواصف والغرق والسيول وشدة الحر والعطش والجوع إلى غير ذلك مما سيأتي شرحه تباعا.

١. فرض الرسوم والضرائب:

تعرض الحجاج لبعض الجماعات التي تستحصل رسوم وضرائب منهم قبل تأدية مراسم الحج بحجة حمايتهم من اللصوص وقطاع الطرق، ومن هؤلاء الجماعات التي كانت تمارس هذه المهمة الاصيفر المنتفقي(ت٤١٠هـ/١٠١٩م)[٣].

ففي سنة(٣٨٢هـ/٩٩٢م) قدم ممثل عن الاصيفر إلى الحجاج وقدم لهم الخدمات التي تسهل لهم الذهاب إلى مكة،ومنها حراستهم في الذهاب والاياب من

---

(١) ٩/٣١.

(*) نظام الدين بن جهير:كان وزيرا للخليفة العباسي المقتفي لامر الله وهو من عائلة مشهورة بالعلم والمعرفة انظر عنهم:احمد،عبد الجبار حامد "ابناء جهير ودورهم السياسي والحضاري في القرنين ٥-٦هـ" بحث منشور في اداب الرافدين العدد٣١/لسنة ١٩٩٨.

(٢) ١٠/١٢٠.

(٣) ٧/٢٩٣.

قطاع الطرق مقابل ضريبة محددة[١]، الا انه لم يذكر مقدارها، وكان الاصيفر وجماعته منتشرين على الطريق بين العراق وبلاد الحجاز.

ولن يسمح الاصيفر بمرور الحجاج الا بعد تأدية الرسوم المفروضة عليهم، ففي سنة(٣٨٤هـ/٩٩٤م) عاد الحجاج إلى العراق ولم يستطيعوا اكمال مسيرهم إلى مكة وذلك لانهم لما وصلوا بين منطقة(الثعلبية وزبالة)[*] اعترضهم الاصيفر ورفض السماح لهم بالمرور، لان الرسوم التي اعطيت له في العام السابق كانت عبارة عن دراهم قليلة ومنها مطلية وربما(مزورة)، ولذلك رفض السماح لهم الا بعد تأدية الرسوم لمدة سنتين، ولذلك فان المفاوضات استمرت بين الطرفين مما ادى إلى فوات موسم الحج، فعاد الحجاج ادراجهم مع اميرهم ابي الحسن محمد بن الحسن العلوي[٢].

وفي بعض السنوات تبرع احد المحسنين الاغنياء المقربين من الخليفة بتلك الرسوم عوضا عن الحجاج للتخفيف عن كاهل الناس ولا سيما الفقراء منهم[٣]. وهذا العمل يعد من الاعمال الخيرية وهو في الوقت نفسه يعد بمثابة خدمات وتسهيلات تقدم للحجاج حلا للمشاكل التي تعتريهم.

كذلك في سنة(٣٨٥هـ/٩٩٥م) حج بالناس ابو عبد الله احمد بن محمد بن عبيد الله العلوي، وقد ارسل مبلغ تسعة الاف دينار من ماله الخاص مع شخص

---

(١) ٧/١٧٠.

(*) الثعلبية وزبالة:الثعلبية/قرب الكوفة من منازل طريق مكة،وسميت بذلك نسبة إلى ثعلبة بن عمرو بن مزيقاء بن عامر بن ماء السماء،وقيل سميت الثعلبية بثعلبة بن دودان بن اسد بن خزيمة بن مدركة بن اياس بن مصر وهو أول من حفرها ونزلها، وقيل سميت برجل من بني دودان بن اسد يقال له ثعلبة ادركه النوم بها فسمع خرير الماء بها في نومه فانتبه وقال اقسم بالله انه لموضع ماء واستنبطه وبناه.(معجم البلدان٢/٣٧٠،١٤٦،٧٨).

وزبالة/بضم اوله منزل بطريق مكة من الكوفة وهي قرية عامرة بها اسواق بين واقصة والثعلبية،وفيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني اسد(معجم البلدان٣/١٢٩).

(٢) ٧/١٧٤.

(٣) ٧/١٧٨.

يدعى بدر بن حسنويه – أمير الجبل – لتدفع إلى الاصيفر عوضا عما كان ياخذه من الحجاج[١]. وفي سنة(٣٨٦هـ/٩٩٦م) قام أبوعبد الله العلوي بارسال بدر بن حسنويه – المار ذكره – يحمل معه خمسة آلاف دينار لتدفع إلى الاصيفر عوضا عما كان ياخذه من الحجاج، لكن في هذه المرة اخذت من أغنياء القوافل التي جاءت من خراسان، الا انه زاد هذا المبلغ من ماله حتى بلغ تسعة آلاف ومائتي دينار[٢] ويبدو ان ذلك كان هدفه للتخفيف من معاناة الحجاج في كل سنة.

وكان لبعض الشخصيات العلمية التي ترافق الحجاج دور في تهدئة الامور مع الاصيفر وجباة الرسوم، لا بل والغاؤها في تلك السنة، ففي سنة(٣٩٤هـ/١٠٠٣م) حج بالناس أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي، وكان مع الحجاج ابو الحسين بن الرفاء(ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) و ابو عبد الله بن الزجاجي وهو من كبار القراء، فعندما اعترض قوافل الحجاج(الاصيفر المنتفقي) وهددهم بالنهب ان لم يدفعوا الرسوم، قرر الحجاج ارسال ابا الحسين بن الرفاء وابا عبد الله بن الزجاجي إلى الاصيفر للتفاوض معه، فذهبا اليه وقرءا بين يديه، فسألهما عن كيفية عيشهما في بغداد، فذكرا بانه نعم العيش ووصفا له كيف تصلهما الهدايا والخلع لاهميتهما، وعندما سألهما عما يصلهما من اموال ومقدارها(الف الف دينار) اجابا بالنفي، عند ذلك قال الاصيفر: "قد وهبت لكما الحجاج واموالهم" أي ان الضريبة التي تؤخذ من الحجاج منحت لهما، فشكراه وانصرفا من عنده[٣] وبذلك اعفي الحجاج لتلك السنة لمكانة هذين العالمين المشهورين.

من الجدير بالذكر ان جباية الرسوم لم تختص بالاصيفر وجماعته فحسب، فقد ورد انه كان بالمدينة المنورة امير يقال له الحسين بن مهنأ قد فرض على الحجاج الواردين لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ضريبة سنوية، الا ان

---

[١] نفسه.

[٢] ١٨٧/٧-١٨٨.

[٣] ٢٢٧/٧.

اخبار بن مهنأ وصلت خارج المدينة فتمت مقاومته مما ادى إلى هروبه، كما كانت في مكة ضريبة تفرض على التجار من الحجاج الذين يمارسون التجارة اثناء موسم الحج[١].

وقع الحجاج في ورطة اخرى في سنة(٥٤٥هـ/١١٥٠م) عندما تعرضت الاعراب لهم وطلبوا منهم الرسوم بين مكة والمدينة، وكان يرأسهم(قيماز)، فقال الامير للحجاج: "المصلحة ان تعطوهم ونستكفي شرهم" فرفض الحجاج ذلك، فنصحهم قيماز بألاّ يزوروا المدينة المنورة لكنهم لم يأخذوا بنصيحته، فخرجت عليهم الاعراب وقاتلوهم واخذوا منهم الثياب والأموال ما لا يحصى، حتى ان التجار قد تحدثوا عن هذه الوقعة، اذ الاعراب اخذوا من هذا التاجر عشرة الاف دينار ومن ذاك عشرين الف دينار ومن الثالث ثلاثين الفا، وكان من بين الحجاج خاتون اخت مسعود السلجوقي، فأخذوا منها ما قيمته مائة الف دينار، وهرب الناس يمشون على اقدامهم في البرية، وهلكوا من الجوع والعطش فوصل(قيماز) إلى المدينة في نفر قليل من الحجاج[٢].

٢. قطاع الطرق:

من المشاكل التي تعرض لها الحجاج اللصوص وقطاع الطرق، وهم من العرب(البدو/خفاجة) مما كان يشكل عبئا ثقيلا على الحجاج في كل سنة كما سيرد ذكره ، لذلك عند القاء نظرة سريعة على كتب الجغرافية والرحلات عند المسلمين امثال: صورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبة والمسالك والممالك للاصطخري وأحسن التقاسيم للمقدسي نلاحظ ان الجغرافيين كانوا يبحثون عن اسهل الطرق وأقصرها واكثرها امنا لكي يسلكها الحجاج وكذلك التجار والرحالة وغيرهم خوفا من اللصوص وقطاع الطرق.

ففي سنة(٣٢٣هـ/٩٣٤م) سار الناس للحج فاعترضهم ابو طاهر بن ابي سعيد الجنابي، وتعرض للحجاج بالقتل والنهب، وعاد من سَلِمَ منهم إلى بغداد،

---

(١) ٨/٣٠٤.

(٢) ١٠/١٤٢.

وبطل الحج في تلك السنة[١]. كما لم يحج في سنة(٣٣٢هـ/٩٤٣م) احد من بغداد بسبب خوفهم من اخوة ابي طاهر – المار ذكره – اذ كانوا ثلاثة وهم: ابو القاسم سعيد وهو الرئيس الذي يخطط ويدبر الامور و ابو العباس و ابو يعقوب، وكانت كلمتهم واحدة ولهم اتباع[٢]، كما تعرض للحجاج سنة(٣٩٩هـ/١٠٠٨م) بنو رعب الهلاليون في منطقة الثعلبية وأخذوا منهم ما يقرب من مليون دينار[٣]. كما بطل الحج في سنة(٤٠٣هـ/١٠١٢م) لفساد الطريق وغياب السؤولين عن حمايته[٤].

وفي السنة نفسها قام ابو فليتة بن القوي مع ستمائة من اعوانه بالتعرض على منطقة(واقصة)[*]، ونزح المياه منها، ووضع الحنظل في آبارها ومنع مرور الحجاج الا بعد دفع مبلغ خمسين الف دينار، وعند امتناعهم هجم عليهم وسرق اموالهم فهلك الكثير منهم نتيجة ذلك، فضلا عن العطش الذي أصابهم بسبب قلة الماء، فقيل أن عدد من هلك منهم بلغ ما يقرب من خمسة عشر الف انسان، ولم يرجع إلى الكوفة الا نفر قليل، مما حدا بالسلطة في بغداد ان ترسل قوة بقيادة علي بن مزيد لمطاردة قطاع الطرق والايقاع بهم، واستطاع ان يظفر بهم وقتل عددا كثيرا منهم، واسر ابن القوي ابا فليتة واربعة عشر رجلا من وجوه بني خفاجة واسترجع ما سرقوه إلى الكوفة، وبعث الاسرى إلى بغداد اذ تم معاقبتهم وقتلهم[٥].

ويبدو انه في بعض السنين حاول الاعراب ان يسيطروا على قيادة الحجاج بالقوة ويرأسوا القافلة في مكة، فقد حدث في سنة(٤٠٥هـ/١٠١٤م) انه تمت مراسم الحج على يد رجلين من بني خفاجة وخلع عليهما بالعطايا والهبات، واثناء ذلك حضر رجل قيل ان اباه ورد من مكة بهذا الكتاب الذي كان يحمله معه، وأن هذين

---

(١) ٦/٢٧٦.

(٢) ٦/٣٣٦.

(٣) ٧/٢٤٤.

(٤) ٧/٢٦٢.

(*) واقصة:موضع قريب من زبالة والثعلبية فيها ماء(الحموي٣/٢٩ و٥/٣٥٣ ٣٥٤).

(٥) ٧/٢٦١.

البدويين اعترضاه في طريقه وقتلاه وأخذا منه الكتاب ووردا به الوزير فأمر فخر الملك البويهي بالقبض عليهما ومعاقبتهما وقرر لولد المقتول هدية وعطاء[١].

وفي سنة(٤١٢هـ/١٠٢١م) حاصر الاعراب الحجاج ونهبوهم، وكان يرأسهم رجل يقال له جهاز بن عدي من بني نبهان، وقد فرض حصارا على الحجاج، وكان من بين القافلة رجل يعرف بابن عفان مشهور بجودة الرمي، فرماه بنبله فسقط جهاز ميتا وهربت جماعته، واستطاع الحجاج اكمال مسيرهم فحجوا وعادوا سالمين[٢].

وفي سنة(٤٨٥هـ/١٠٩٢م) هجم بنو خفاجة على الحجاج عندما خرجوا من الكوفة فقتلوا أمير الحجاج(ابن ختلغ) واوقعوا بالحجاج وقتلوا العسكر الذي يحميهم، مما ادى إلى انهزام الحجاج والعسكر ودخل الكوفة من نجا منهم، فاتبعهم(بنو خفاجة) إلى الكوفة واغاروا عليهم وقتلوا منهم، فتصدى لهم الناس، وارسل من بغداد مددا من العساكر، فانهزم(بنو خفاجة) ونهبت اموالهم وقتل منهم الكثير[٣].

ولم تكن خطورة الطريق من قطاع الطرق في الكوفة أو بين مكة والمدينة، وانما منتشرة في كل الاماكن، كما ان الحجاج لم يامنوا على حياتهم واموالهم في الذهاب فحسب، وانما في الاياب ايضا مما يدل على كثرة انتشار الاعراب في تلك المناطق، وكانوا خارجين عن سيطرة الدولة لعدم تمركزهم في منطقة ثابتة وانما كانوا يعيشون حياة البداوة المتنقلة رافضين الانقياد لطاعة الدولة، ويفضلون الانفلات والعبث. ففي سنة(٥٦٣هـ/١١٦٧م) اكمل الحجاج حجهم وعادوا إلى العراق سالمين فخرجت عليهم(بنو خفاجة) في طريق الحلة فنهبوا أموالهم وقتلوا منهم وهرب من استطاع من الحجاج[٤].

---

(١) ٢٦٨/٧.

(٢) ٢/٨.

(٣) ٦٣/٩.

(٤) ٢٢٢/١٠.

لكن السلطة كانت تطارد هؤلاء بين الحين والاخر وتقتل من تظفر به، ففي سنة(٥٧١هـ/١١٧٥م) أرسلت جيشا كبيرا إلى بني خفاجة لمحاربتهم، فانهزموا امام عسكر الدولة ولم يدركوهم لدخولهم في عمق الصحراء، الا انهم استطاعوا ان يقتلوا من ظفروا به[١].

وكان قطاع الطرق لا يترددون في مهاجمة الحجاج في مكة نفسها إن تهيأت لهم الفرصة السانحة، ففي سنة(٥٧١هـ/١١٧٥م) وعندما انتهى الحجاج من وقفة عرفات، خرج اليهم قوم من مكة في اول يوم عيد الاضحى وحاربوهم وبدا النهب والسلب، وتعرض التجار من الحجاج إلى النهب ايضا حتى انه تضرر عدد من اهل مكة[٢].

٣. القرامطة وتسببهم للفتن التي كانت تحدث في مكة:

فضلا عن قطاع الطرق، كانت مكة قد تعرضت لاضطرابات وفتن وهجوم القرامطة عليها مما كان له اثره على الحجاج في كثير من الاعوام. ففي سنة(٣١٧هـ/٩٢٩م) وعندما وصل الحجاج إلى مكة تبعهم ابو طاهر الهجري القرمطي يوم التروية، فقتل عددا منهم في المسجد الحرام، وكان الناس في الطواف، وقام الهجري باقتلاع الحجر الاسود كما قلع قبة بئر زمزم واخذ ستار الكعبة، وقلع باب البيت، كما امر احد رجاله بالصعود إلى اعلى البيت لقلع الميزاب، لكن الرجل سقط على رأسه ومات، كما قتل أمير مكة، والقي القتلى في بئر زمزم ودفن الباقي في المسجد الحرام. ثم انصرف الهجري ومعه الحجر الاسود، وبقي عندهم اكثر من عشرين سنة إلى ان ردوه[٣].

ويبدو ان امراء الحج كانوا يراسلون القرامطة، كما هو حالهم مع الاصيفر – المار ذكره – من اجل طلب السماح للحجاج بالمرور مقابل ضريبة تقدر لهم. ففي سنة(٣١٧هـ/٩٢٩م) لم يذهب احد من العراق للحج، ربما بسبب تعرض القرامطة

---

(١) ١٠/٢٦٠.

(٢) ١٠/٢٦٠.

(٣) ٦/٢٢٣.

للحجاج وقطع الطريق عنهم، ولذلك فانه في سنة(٣٢٧هـ/٩٣٨م) كاتب امير الحج ابو علي عمر بن يحيى العلوي القرامطة، وكانت بينهما معرفة، فسألهم أن يأذنوا للحجاج لكي يقودهم إلى مكة مقابل اعطائهم خمسة دنانير لكل جمل وسبعة دنانير على كل بعير محمّل، فوافق القرامطة واذنوا للناس بالحج، وعدت تلك الأموال بمثابة ضرائب تدفع من قبل الحجاج، ولذلك فان بعض العلماء حرموا هذه الضرائب وعدّوها غير شرعية ومنهم القاضي ابو علي بن ابي هريرة الشافعي الذي قفل راجعا الى العراق عندما فرضت تلك الضرائب وقال: "لم ارجع شحا على الدراهم ولكن قد سقط الحج لهذا المكس"[١].

٤. جدير بالذكر ان الحجاج واجهوا فتناً داخل مكة، تعد من المشاكل المكملة للمشاكل التي واجهتهم مع القرامطة، ففي سنة(٥٥٧هـ/١١٦١م) لم يدخل اكثر الحجاج إلى مكة سوى فئة قليلة منهم، ورجع الاغلبية للاضطرابات والفتن التي جرت في موسم الحج[٢]، ويبدو ان وراء تلك الفتن كانت محاولة سرقة الحجاج واخذ اموالهم، ففي سنة(٥٥٨هـ/١١٦٢م) حصل كما حصل للحجاج في السنة التي سبقتها، والسبب في هذه المرة ان الاضطرابات كان وراءها جماعة من عبيد مكة تعرضوا للحجاج واغاروا على اموالهم وجمالهم وسرقوها، مما حدا بأمير الحجاج ان يستنفر الحجاج والحراس لصد هؤلاء اللصوص، وقد وقع قتال بين الطرفين راح ضحيته عدد من اهل العراق واهل مكة أيضا، وكانت هذه الفتنة سببا لكي يجمع امير الحجاج جماعته ويقفل راجعا دون الدخول إلى مكة أو الوقوف بعرفة، خوفا عليهم، ما عدا قيامهم بتعليق كسوة الكعبة، ورفض امير الحجاج العودة إلى مكة على الرغم من ارسال الرسل اليه من قبل أمير مكة يستعطفه بالعدول عن رأيه[٣].

٥. هبوب العواصف والرياح:

---

(١) ٦/٢٩٦.

(٢) ١٠/٢٠٢.

(٣) ١٠/٢٠٥.

فضلا عن قطاع الطرق والفتن والاضطرابات التي عانى منها الحجاج في طريقهم إلى مكة أو بين مكة والمدينة أو داخل مكة، فقد واجهتهم كوارث طبيعية كان لها تأثير كبير فيهم اثناء تأديتهم فريضة الحج، ومن تلك الكوارث هبوب العواصف والرياح الشديدة التي تحدث بحكم طبيعة المنطقة الصحراوية التي يسلكها الحجاج بين العراق ومكة، ففي سنة(٣٩٧هـ/١٠٠٦م) هبت على الحجاج ريح(سوداء) كما يصفها ابن الجوزي في منطقة الثعلبية، اظلمت الدنيا بسببها وكان تأثيرها كبيرا عليهم اذ فقد كل منهم اصحابه وامتعته كما اصابهم العطش الشديد، وقد اثر ذلك على موعد الحج، فعادوا إلى الكوفة ثم إلى بغداد وتوقف الحج في هذه السنة[١].

وفي سنة(٣٩٩هـ/١٠٠٨م) وفي منطقة الثعلبية أيضا أصابهم ريح شديد أثرت عليهم فعادوا إلى بغداد[٢]. وفي سنة(٤٠٢هـ/١٠١١م) أرسل أمير الحجاج أبي الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي رسالة إلى بغداد يخبرهم بأن ريحاً شديداً تعرض لها الحجاج في الطريق إلى مكة اذ انهم فقدوا الماء وظهر عليهم العطش ومات منهم عدد كبير مما حدا بهم العودة إلى الكوفة[٣].

٦. الحر والجوع والعطش والغلاء:

يرتبط بالفقرة السابقة مشكلة كان يتعرض لها الحجاج بين الحين والآخر، وهي شدة الحر وما يرافق ذلك من عطش وجوع وما يترتب عليه من غلاء للاسعار مما يؤثر عليهم كثيرا، ففي سنة(٤٠٣هـ/١٠١٢م) تعرض الحجاج لعطش شديد لكن سببه هذه المرة ليس الطبيعة وإنما قطاع الطرق وفارضي الضرائب والرسوم، فيذكر ابن الجوزي انه في هذه السنة ورد الخبر إلى بغداد بان ابا فليتة بن القوي قد جمع ما يقرب من ستمائة رجل من رجاله وذهب إلى منطقة(واقصة) التي فيها صهاريج الماء وقام بنزح المياه من تلك الاماكن وهدمها وطرح في الابار

---

(١) ٧/٢٣٤.

(٢) ٧/٢٤٤.

(٣) ٧/٢٥٧.

الحنظل لكي يفسد المياه، ثم انتظر مجيء الحجاج. فعندما وردوا إلى تلك الاماكن منعهم من الاجتياز وطالبهم بخمسين الف دينار، فامتنعوا عن الدفع، الا انه حاصرهم مما اصابهم العطش، وهجم عليهم فاخذ أموالهم، وقيل انه هلك من الحجاج ما يقرب من خمسة عشر الفا[١].

في سنة(٤٠٦هـ/١٠١٥م) تعرض الحجاج لموجة عطش وجوع شديدين، وكانت اعدادهم كثيرة بلغت ما يقرب من عشرين الفا، فيذكر انهم شربوا ابوال الجمال واكلوا لحومها ولم يسلم منهم سوى ستة الاف[٢]. وعلى الرغم من المبالغة في الرواية الآنفة الذكر لكون الابوال فيها من المواد السامة والمضرة والتي لا فائدة من شربها سوى الضرر، الا ان ذلك يعكس المحنة الشديدة التي وصل اليها الحجاج في هذه السنة.

وفي سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م) شهد الناس حرا شديدا، يقول عنه ابن الجوزي انه لم ير مثله في حياته مما اثر على سفر الحجاج، الا انهم فوجئوا بتغيير الجو عند ذهابهم إلى مكة واصبح الجو باردا[٣].

اما الجوع وغلاء الاسعار فقد عانى منها الحجاج اثناء ذهابهم إلى للحج كما حصل في سنة(٥٧٣هـ/١١٧٧م) اذ ورد ان من هلك نتيجة ذلك اعداد كبيرة من الحجاج ومن جمالهم[٤].

٧. السيول والغرق:

من الكوارث الطبيعية الاخرى التي عانى منها الحجاج الامطار والسيول – على الرغم من ندرة حدوثها – ففي سنة(٢٨١هـ/٨٩٤م) تعرض الحجاج في

---

(١) ٧/٢٦٠-٢٦١.

(٢) ٧/٢٧٦.

(٣) ١٠/٢٤٣.

(٤) ١٠/٢٦٩.

منطقة(الاجفر) لامطار كثيرة ادت إلى حدوث سيول،مما ادى إلى غرق عدد منهم وطمرهم في الاوحال[١].

وفي سنة(٤٨٩هـ/١٠٩٥م) تعرض الحجاج لسيل كبير في وادي(المناقب) بعد منطقة نخلة فنجا منهم من صعد الجبال وهلك من الناس والحيوانات الكثير[٢].

٨. وفاة الحجاج:

وبعد ذلك كله فان الحجاج يتعرضون للموت المفاجئ في مكة واثناء اداء مراسم الحج، لاي سبب كان سواء المرض أو الاصابة بحادث كالقتل أو السقوط من أي مكان وما ينتج عنه من كسور وخدوش أو بسبب الكوارث – كما مر – وغير ذلك، وهي ايضا تعد من الامور التي يتعرض لها الحجاج اثناء موسم الحج. ففي سنة(٢٥٩هـ/٨٧٢م) يذكر ابن الجوزي انه توفي في هذه السنةعدد من حجاج[٣] لكنه لم يذكر سبب وفاتهم.

وفضلا عن الوفيات الجماعية التي تحصل لاي سبب من الاسباب فانه قد توافي المنية الحجاج افرادا، فيشير ابن الجوزي إلى هؤلاء ومنهم بالذات العلماء، فيذكر وفياتهم اثناء ترجمته لهم. ومنهم محمد بن ابراهيم بن يحيى، ابو بكر المقرئ الذي توفى سنة(٢٧٦هـ/٨٨٩م) في طريق مكة[٤]، وكذلك محمد بن احمد بن حماد، ابو بشر الدولابي الوراق المحدث الذي توفي بين مكة المدينة سنة(٣١٠هـ/٩٢٢م)[٥] ومثله احمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم. ابو سعيد البصري المحدث الذي توفي بمكة سنة(٣٤١هـ/٩٥٢م)[٦] وغيرهم كثير.

---

(١) ٥/١٤٧.

(٢) ٩/٩٧.

(٣) ٥/٢٠.

(٤) ٥/١٠٣.

(٥) ٦/١٦٩.

(٦) ٦/٣٧١.

ان ما ورد انفا عن المشاكل والعقبات التي تعترض الحجاج هي انعكاس لمعاناتهم في ذلك الوقت والصعوبات التي تعتريهم ومن ثم تحملهم للمشاق بكل اشكالها مما يجعل اجرهم مضاعفا وحجهم مبرورا، والله اعلم.

القاء الدروس في مكة:

من بين الحجاج العراقيين كان العلماء الذين يرومون الذهاب إلى مكة لتأدية فريضة الحج، فانهم ينتهزون هذه المناسبة لالقاء الدروس من اجل الافادة والاستفادة، ومثال ذلك محمد بن جعفر بن محمد بن فضالة، ابو بكر الآدمي القارئ(ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م)، اذ كان يجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبدأ بقراءة القرآن فيجتمع الناس حوله لسماع قراءته، وحصل ذلك اثناء قيام رجل ضرير بجمع حلقة له ليقص ويروي احاديث كاذبة موضوعة عن الرسول صلى الله عليه وسلم واخبار كاذبة لا صحة لها، مما حدا بالآدمي القارئ ان يجعل له حلقة ادت إلى ان ينفض الناس من ذلك الرجل الضرير والتجمع حول الآدمي[١].

وهكذا يتبين لنا ان ابن الجوزي قد اورد الكثير من اخبار الحجاج العراقيين وما كان يعتريهم أو يصيبهم اثناء رحلتهم إلى الحج، وهناك الكثير من الامثلة في كتابه غير التي اشير اليها في هذا البحث.

الخاتمة

من خلال دراستنا لموضوع الحجاج العراقيين في كتاب ابن الجوزي يمكن ملاحظة جملة امور:

- ان ابن الجوزي كان قد عني باخبار الحجاج نظراً لمكانتهم الكبيرة في الاسلام.
- يتسابق المحسنون ورجالات الدولة والاغنياء في تقديم الاعمال الخيرية للحجاج، لما في ذلك من اجر وثواب.

---

[١] ٦/٣٩٣.

- ان الخليفة العباسي كان قد وضع الحج في مقدمة جدول اعماله لكي تكون قوافل الحجيج برعايته أو من ينوب عنه بوصفه خليفة للمسلمين وحامي مقدساتهم، فهو الذي يختار امير الحجاج وينظم المواكب.
- رغم ذلك فقد يتعرض الحجاج لمعوقات ومشاكل تعتريهم اثناء ذهابهم أو عودتهم أو أثناء تأدية المناسك كقطاع الطرق أو قلة الماء أو حصول كوارث طبيعية.
- وعلى الرغم من الصعوبات والمشاكل فان المسلمين كانوا يتسابقون لتأدية هذه الفريضة ولن يثنيهم عنها اية عوائق أو صعوبات لتحقيق غرضين مهمين اولهما هو اكمال ركن من اركان الدين الاسلامي وثانيهما هو تعرف المسلمين بعضهم على بعض والتباحث في شؤونهم لانهم كما عبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم "المسلمون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

Abstract

Iraqi Pilgrimages' Stories during the Abbasid Era In the book: AlMntdum by Ibn Al-Jawzi

Dr. Abduljabār H. Ahmmad*

The present paper deals with an important pillar of the Islamic ones, viz, Hajj (Pilgrimage) to Mekah. This study is carried out by relying on the pilgrimages' news during the Abbasid caliphate.